«دم ورمال»: رواية صحافي عن العالم العربي والحرب على الإرهاب

عندما راقب الرئيس اغتيال الحارثي من يخته.. وعطل فني افسد على الرئيس مبارك متعة مشاهدة مقابلته في موعدها

رحلة بدأت آملة بلقاء عابر مع الرحالة ويلفريد ثيسجر وانتهت بمصيبة في حي السويدي في السعودية

عرض وتقديم: ابراهيم درويش

■ فرانك غاردنر، مراسل هيئة الاذاعة البريطانية «بي بي سي» للشؤون الامنية، يتذكر اللحظة التي اطلق عليه فيها جهاديون سعوديون النار في حي السويدي، في العاصمة السعودية الرياض، في شهر حزيران (يونيو) 2004 عندما كان يقوم باعداد تقرير خاص عن نشاطات الجهاديين السعوديين مع المصور سايمون كامبرز، كانت لحظة خروج شبان بلباسهم العربي الابيض، هي مساحة بين الموت والحياة، كانوا يبتسمون، ليس في مظهرهم ما يشير الى نيتهم القيام بعمل قاتل، ولكنه عرف انهم مقدمون على الفعل القاتل عندما اخرجوا مسدساتهم واطلقوا النار عليه، حيث رجاهم وصرخ بهم ان لا يفعلوا ولكنهم اطلقوا النار، وتركوه وحيدا دمه ينزف، وقميصه الابيض الذي غيره للتو في غرفة الفندق يتحول الى احمر قان، في تلك اللحظة يقول انه شعر بالوحدة، التي لم يشعر بها في اي مكان في العالم العربي الذي عاش فيه وعمل في عواصمه، لم يحضر احد لمساعدته، ولم يعرف اين ذهب المصور كامبرز او سائقه.. يتساءل فرانك غاردنر، الذي نجا من الموت، ولكنه فقد القدرة على السير، عن السبب الذي لم يحضر احد لمساعدته، ففي العاصمة المصرية، القاهرة، يخاطر المواطنون بحياتهم وهم يقطعون شوارع واسعة للمساعدة في اصلاح عجلة نفد منها الهواء.. في بلد يتسابق فيه السكان على اكرام الغريب، لم يكن حول غاردنر في تلك اللحظة ولو شخص واحد. كان ذلك الحادث الذي مات فيه المصور كامبرز، بمثابة نقطة تحول في حياة الصحافي الذي جاء اليها عبر العمل في الاستثمارات البنكية، واشعل اهتمامه بالعالم العربي وشؤونه لقاء عابر بين اعظم الرحالة الانكليز في القرن الماضي ويلفريد ثيسجر، ووالدته التي التقت بالرحالة مصادفة في احدى حافلات شارع اوكسفورد. وتبين ان الرحالة صديق قديم للعائلة، عندها قرر فرانك الشاب ان يتعلم العربية ويسافر الى العالم العربي. ومذكراته التي يتحدث فيها عن الاعتداء عليه في حي السويدي، هو عن ذاكرته عن العالم العربي، فهو يقول ان اقامته في مصر التي ذهب اليها بعد اغتيال الرئيس المصري انور السادات، جعلته يحب العالم العربي، حيث زار مصر في رحلة استمرت عاما ضمن دراسته في جامعة اكستر.

لقاء مع ثيسجر وتعلم اللغة العربية

كان لقاء الشاي مع ثيسجر في شقته في تشيلسي هو الذي اشعل خيال الشاب الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر، حيث ترك بلدته مالبرا الى جامعة اكستر، ويسرد غاردنر هنا ايامه في جامعة اكستر، حيث يقول انه كان يحن الى ان يتكلم العربية، عربية الشارع والسوق، لا عربية الشعر الجاهلي والعصر الكلاسيكي الاسلامي. وعندما انهى دراسته الجامعية، لم يبحث عن عمل في المؤسسة البريطانية، مع انه في اثناء فترة اقامته في القاهرة، تعرف على الكثيرين من اعضاء الاستخبارات الخارجية البريطانية «ام اي6»، وفي تلك الفترة عرض عليه الانضمام الى سلك التجسس، وكان وهو الشاب لا يفكر في تبعات العرض، ولكنه عندما قوبل في مركز المخابرات وحذر من انه اذا وقع على قانون السرية الذي يمنعه من افشاء اي سر يتعلق بعمله في المخابرات، وانه منذ اللحظة التي يقبل فيها بشروط العقد فلن يكون قادرا على اخبار حتى اقرب الاقرباء اليه، وعليه الكذب في غالب الاحيان، عندها قرر ان الاستخبارات والتجسس لا يناسبانه. في البداية عمل اعمالا مختلفة، مروجا للعطور، وعمل في بنك استثماري في لندن وبعدها في البحرين، التي تبدو فيها حياته صاخبة، حفلات، حمامات سباحة، ومن ثم تعرفه على الفتاة النيوزلندية التي ستصبح زوجته امانداً، بعد ان نقل الى لندن، كمدير لفرع البنك الذي يعمل فيه، لم تعد حياته مليئة بالحفلات، حيث يقول «وجدت نفسي محاطا باشخاص لا يحبون الا الحسابات» لا الحفلات، وعندها قرر البنك التخلي عن خدماته. كان غاردنر الذي زار دول العالم العربي كلما سنحت له فرصة، حيث زار سورية، ولبنان والاردن، ومصر واليمن.. يشارك بين الفترة والاخرى بمساهمات صحافية، وحلمه كان العمل في مجال الصحافة. كتابه «الدم والرمل» هو عن رحلاته في العالم العربي، حيث يلاحظ غاردنر انه اثناء اقامته في مصر، وجد الكثير من النقاط المشتركة بين المصريين والانكليز، خاصة حس السخرية السوداء.

وعن قراره العمل في الصحافة يقول انه في عمر الثالثة والثلاثين اصبح العمل الصحافي اكثر اغراء له، حيث درس في كلية مورلي عددا من المساقات الصحافية، كما اخذ مساقا في جامعة تيمز فالي، ودرس مساقا آخر في الاعلام العام، وبعدها عمل في المحطة التلفزيونية التابعة «لبي بي سي وورلد». يتحدث غاردنر عن المصاعب التي واجهته وهو يخط طريقه في مجال العمل الاعلامي، حيث حاول اكثر من مرة اقناع المحررين في الهيئة لارساله للعالم العربي كي يقوم بتقديم تقارير من هناك. ولانه لم يأت من داخل المؤسسة ولم يتدرب ضمن برامجها، فقد كانت فرصه ضعيفة. ويذكر انه كان قاب قوسين او ادنى من مقابلة اسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة، لولا ان خالد الفواز، الرجل الذي اتصل به وعرض ترتيب لقاء مع بن لادن اعتقل في لندن.

رواية صحافي

رواية فرانك غاردنر عن «الحرب على الارهاب» التي اعلن عنها الرئيس الامريكي جورج بوش في تفاصيلها رواية صحافي غطى الاحداث في العالم العربي او المناطق التي اعتبرت مراكز نشاط لتنظيم القاعدة، المقصود في هذه الحرب، التي اعلن مخطط وزارة الدفاع الامريكية (البنتاغون) انها «حرب طويلة الامد»، فهي عن الاحداث التي عايشها، سواء خطف السياح الاجانب في اليمن، والعملية الفاشلة التي قامت بها القوات اليمنية لتحريرهم، من خاطفيهم بقيادة ابو الحسن المحضار، او رحلته في السعودية اثناء زيارة رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، الذي كان يجمع الدعم العربي والدولي لحرب بوش على افغانستان، حيث زار مراكز اعتبرت في السعودية معاقل للجهاديين السعوديين او المتعاطفين معها، ولقائه مع «ابو عبد الله» في مدينة بريدة، وناشطين آخرين في مدينة اسكاكا.

كان غاردنر في 2001/9/11 في طريقه من اسرائيل الى لندن، عندما ترك وسائق السيارة الفلسطيني «الامريكان كولوني» في القدس، حيث سمع السائق خبر الهجوم على نيويورك والبنتاغون من اذاعة «هيئة الاذاعة البريطانية» (بي بي سي)، وفي مطار اللد، سأل غاردنر رجل امن اسرائيلياً في المطار، هل عرف من يقف وراء العمليات، فكان جواب رجل الامن «ليس غير الفلسطينيين وراء هذا العمل». وهو نفس ما واجهه في السعودية التي لم يصدق فيها المواطنون فكرة قيام شبان مسلمين، معظمهم سعوديون بهذا العمل في قلب امريكا، حيث اتهموا اسرائيل بالضلوع فيها. وجهتا نظر تعكسان واقع ما يجري في المنطقة.

يرى غاردنر ان الموقف السعودي هذا ينبع من حالة عدم اهتمام السعودية/ الحكومة بتهديد القاعدة، حيث لم تتخذ اجراءات للتعرف على حجم التأييد الذي بدأت تلقاه دعوة زعيم القاعدة اسامة بن لادن بين المواطنين السعوديين، او الطبقات الغاضبة من الشبان على الوضع في بلادها. في مرحلة لاحقة، يقول غاردنر انه عندما كان يتحرك في السعودية بناء على اتصالاته ومعلوماته مع اشخاص سعوديين لم يكن يخشى على امنه، فقط وعندما وضع حياته وامنه في يد الامن السعودي، تعرض للحادث الذي افقده القدرة على السير، ومتعة التحرك والسفر ومواجهة متطلبات العمل الصحافي. عمل غاردنر مراسلا لـ«بي بي سي» وعدد من مؤسساتها في دبي التي وفرت لعائلته نوعا من الراحة، وفي القاهرة وهي آخر مركز شغله كمراسل للهيئة في العالم العربي قبل ان ينتقل الى لندن ويعمل بعد فترة سكون في مجال التحقيق الصحافي، حيث اصبح مراسلا للهيئة للشؤون الامنية. وكان يعني هذا تعامله مع مؤسستي «ام اي 6» للاستخبارات الخارجية و «ام اي فايف» للاستخبارات الداخلية، ويقول انه كان واعياً لنظرة بعض زملائه له ان مجرد اتصاله مع هاتين المؤسستين يعني انه كان جنديا فيهما، مع انه اعتبر تعامله معهما، باعتبارهما مصدرا للمعلومات، لا يؤثر على حياديته كصحافي ولا على العمليات السرية لهما، فهما مصدر للمعلومات لا اكثر ولا اقل. وضمن هذا السياق يقول ان بريطانيا لم تلتفت جديا لنشاطات المهاجرين العرب، خاصة الاسلاميين منهم وبشكل جدي الا بعد حملة تفجيرات قطارات المترو في باريس التي قام بها ناشطون اسلاميون من شمال افريقيا، فقد غيرت بعدها المؤسسات الامنية موقفها من الناشطين هؤلاء الذين تعاملت معهم ضمن استراتيجية «تسامح ولكن تحت الرقابة»، وفي هذا الاطار يتحدث عن الحملات التي قامت بها القوات الامنية البريطانية لاعتقال ناشطين، ضمن قانون الارهاب التي منحت الشرطة صلاحيات واسعة لاعتقال واحتجاز اشخاص دون محاكمة لأمد غير معلوم، وهي القوانين التي اثارت نقد جماعات حقوق الانسان.

حرب معلومات وليست استعراضاً للقوة

في نفس الوقت، وان لم يكن غاردنر مع فكرة «الحرب على الارهاب» التي تعتمد على القوة العسكرية فقط، الا انه كان يرى ان الموقف الصحيح منها هو تطوير ادوات جمع المعلومات عن الناشطين، ويشير هنا الى عملية اغتيال ناشط من القاعدة ابو علي الحارثي التي نفذتها القوات الامريكية معتمدة على صاروخ «هيللفاير» الذي اطلق من قاعدة عسكرية امريكية من جيبوتي في يوم الاحد 2 تشرين الثاني (نوفمبر) 2002، وبمعرفة من السلطات اليمنية، ويقول غاردنر ان الرئيس اليمني كان يراقب عملية الاغتيال من يخته في خليج عدن. ويتحدث غاردنر ان تعاون السلطات اليمنية مع المخابرات الامريكية «سي آي ايه» كان مشروطا بان يتم الاغتيال ولكن دون الحديث عن الجهة التي نفذته. ومع ان الرواية الرسمية اليمنية في البداية نفت ان يكون للحكومة علاقة باغتيال الحارثي قرب مأرب ونسبت الامر الى ان سيارة الحارثي انفجرت بعد اصطدامها بحاجز صخري، مما ادى لاشتعال القنابل التي كانت بحوزتهم، ولكن روايات شهود العيان التي تحدثت عن رؤيتهم لجسم في السماء ادت للكشف عن التعاون اليمني ـ الامريكي في اغتيال الحارثي الذي اعتبرته واشنطن احد المسؤولين عن تفجير المدمرة الامريكية كوك قرب الشواطئ اليمنية في عام 2000.

قبل اهتمامه بالقاعدة، والناشطين الاسلاميين، كان غاردنر مشغولا بتقارير ذات طابع غير سياسي، حيث اعد تقريرا عن حالة انتشار المخدرات في الكويت، وتقريرا عن حالة السياحة في منطقة عسير، والتقى لآخر مرة مع ويلفريد ثيسجر الذي حل ضيفا على الامارات، ولقائه مع رئيس الامارات الراحل الشيخ زايد بن سلطان، الذي دعاه لقصره وتذكر رحلة صيد معه عام 1937، عندما حمل الصقر ارنبا، فرماه الشيخ للكلب ولكن ثيسجر الذي كان جائعا، سحبه من الكلب، وشواه وأكله. وذهب غاردنر الذي يتذكر ثيسجر واصراره على الحفاظ على زيه الرسمي بالبدلة في الصحراء لاكمال اللقاء، وعدم راحته للسيارات المرفهة، وخاصة مكيفات الهواء فيها. وانتقاد غاردنر من زملائه جاء لانه لم يول اهتماما بما كان يحدث في الاراضي الفلسطينية التي ذهب اليها وغطى احداث انتفاضتها الثانية. وبعدها غطى حرب العراق من الجنوب، اي مدينة البصرة وسافر الى افغانستان، وسجن غوانتانامو الذي يعتقد انه لم يخدم صورة امريكا ولا الغرب عامة.

في نهاية كتابه، يتحدث غاردنر بعد حادث تفجيره عن الحادث الذي شله وحرمه من الحركة، فهو يقول ان العملية المدروسة، والمخططة، والقريبة، كانت تجربة لا يمكن لاحد تخيل انه سيتعرض لها «وفي الوقت الذي لا اقضي نهاري وليلي افكر بما حدث، لكن لا محيد عن التفكير انني الان اعيش على كرسي متحرك، هذا شيء لم اخطط له ابدا، على العكس، كنت افكر انني في عمر السبعين سيكون بامكاني الصعود الى الجبال، وملاحقة ابنائي.. وان تشل في عمر الشباب وبصحة وعافية، كانت ضربة كارثية..»، وعزاؤه انه لا زال يحتفظ بالجزء العلوي من جسده معافى، ويتمتع بدعم عائلته واولاده، ويعيش في لندن التي تتوفر فيها كل الوسائل لاصحاب الاحتياجات الخاصة. ويقول غاردنر «لم اكن اتخيل عندما سجلت لدراسة اللغة العربية في شبابي، ان استخدم هذه اللغة في عالم مليء بالاسرار، وعالم الارهاب المرتبط بالقاعدة.. ومنذ عام 2001 وجدت ان اللغة العربية مهمة.. ولا زلت اعتقد اننا بحاجة الى فهم بعضنا البعض، واهمية تعلم بعضنا البعض عن ثقافتنا ومعتقداتنا ومجتمعاتنا»، وعبر غاردنر عن امله في «ان نعيش الايام التي لن يحمل فيها اسم «الشرق الاوسط تلك الظلال السلبية»، ويتم فيه الاعتراف واحترام العالم الاسلامي، لما قدمه من انجازات للحضارة، بدلا من التعامل معه في الغرب عبر منظور الشك، وان لا يصبح فيه مكان في هذا العالم للمتعصبين الذين قتلوا سايمون كامبرز واطلقوا النار علي، ولا مكان فيه للذين يقولون ان العرب والغربيين لن يكونوا اصدقاء».

يكتب غاردنر عن لقاء له مع الرئيس المصري حسني مبارك، الذي قابله في قصره بشرم الشيخ، وكيف سأل الرئيس عن التهديد الارهابي ونصائحه للدول الغربية، وكيف انتظر الرئيس مبارك طويلا ليرى اللقاء على «بي بي سي»، حيث اثر عطل فني على نقل اللقاء في موعده المحدد، ومع التأخير، يقول غاردنر ان الرئيس رضي عن اللقاء، وعندما زار لندن، طلب مقابلة غاردنر بالاسم.

* فرانك غاردنر، ولد عام 1961، ويعمل الان مراسلا لهيئة الاذاعة البريطانية للشؤون الامنية، ويعد تقارير للتلفزيون والراديو عن القضايا المتعلقة بالامن، محليا ودوليا، يتحدث العربية بطلاقة، وحصل على شهادة من جامعة اكستر في الدراسات الاسلامية. عمل في دبي والقاهرة، حصل على وسام الامبراطورية الذي قدمته له الملكة اليزابيث عام 2005 لخدماته للصحافة.

الكتاب:

Blood & Sand
Frank Gardener
Bantam Press
London/2006

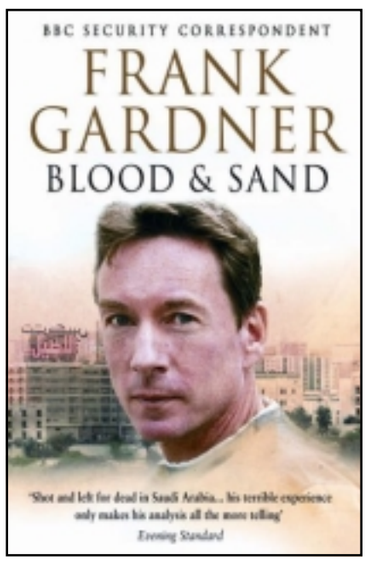

المؤلف فرانك غاردنر

رئيس دولة الامارات الراحل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان يتذكر الايام الماضية مع الرحالة البريطاني ويلفريد ثيسجر وذلك في اخر لقاء بينهما عام 2000

«هذا ما حدث» ... ذكريات على الذكريات:

تصوير دقيق للحراك الثقافي في ليبيا خلال عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي

محمود الناكوع*

■ «هذا ما حدث» سيرة ذاتية لشخصية لامعة الذكاء منذ مرحلة التعليم الابتدائي الى المرحلة الجامعية ثم الدراسات العليا، وقد جمع صاحب هذه السيرة بين علوم الفلسفة والتاريخ واللغات وآدابها وخاصة اللغة العربية وأثرها في اللغات الأخرى. و«هذا ما حدث» لم يكن سردا لما حدث له فقط، ولكنه صفحات من الابداع النثري الذي يشد القارئ من اول فقرة الى آخر جملة فيه وفي سطوره من الملح والطرائف والمواقف ما يضحك، وفيه ايضا من التجارب والاحداث والابتلاءات ما يبكي.

تلك هي ذكريات الدكتور علي فهمي خشيم المثقف الليبي الموسوعي الذي ملأ حياته وعلاقاته مع الآخرين بكثير من الابداع كما ملأها بكثير من الجدل والمعارك الكلامية، وخاصة تلك المعارك التي دارت وما تزال تدور رحاها حول ما قال في التاريخ وفي اللغة العربية وعمقها وانتشارها في نسيج اللغات الأخرى، وخاصة ما كتبه عن علاقة اللغة العربية او العروبية بالأمازيغية (لسان العرب الأمازيغ) و(سفر العرب الأمازيغ). انها مسيرة وسيرة ثرية تضع صاحبها الدكتور علي خشيم في عداد الصفوة الليبية والعربية ثقافة وانتاجا وريادة رغم كل ما دار ويدور حول اعماله وانتاجه من اختلافات وآراء معارضة او مشككة او متفاعلة...

عرفت علي فهمي خشيم عندما كنا في الجامعة في اوائل الستينات طالبا ذكيا، وكانت معرفة عن بعد، ولم تنشأ بيننا اية علاقة شخصية، ثم عرفته في ميدان الصحافة بطرابلس وقرأت اول كتاب له وهو (الحركة والسكون) وقرأ لي في تلك المرحلة كتاب (اقباس على طريق الشباب).. وبعد انقطاع طويل طويل قرأت كتابه (هذا ما حدث) الذي سجل فيه اغلب ذكرياته، وفي الكتاب اشياء كثيرة جميلة منها الأسلوب الذي صاغ به ذكرياته وما يزخر به من قيم جمالية وفنية تجعل القارئ لا يشعر بالملل، بل يشعر برغبة في الانتقال من صفحة الى صفحة، ومن حدث الى حدث..

ومن تلك الأشياء الجميلة قدرته على تطويع الكلمات والجمل لتصبح من السهل المحبب، فرغم انه استاذ فلسفة، والفلسفة هي مادة الجمل والأفكار والقضايا الصعبة المركبة المتشعبة، لكن خشيم حينما كتب سيرته هذه جاءت على نحو ما يكتب الأديب الخبير بأساليب الابداع النثري، فكانت كلماته وجمله عربية فصيحة سهلة، تشد القارئ شدا مريحا جذابا... والكتاب يعبر بالقارئ الى مساحات جغرافية شاسعة حيث حل صاحب السيرة طالبا في دارهم البريطانية او زائرا لليابان والصين وبلدان اخرى باحثا ودارسا او محاضرا في ندوة من الندوات الفكرية، ويدخل احيانا في تفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية وخاصة عندما يكتب عن مدينة طرابلس وعن المدينة القديمة بالذات، وعن زنقة شلاكة التي احتلت حيزا معتبرا في الكتاب، وفيها بدأت قصة حبه لابنة خاله التي تزوجها وسعد معها ثم داهمها السرطان فكانت الفاجعة المؤلمة له، وقد جسد معاناته معها اثناء المرض باسلوب تراجيدي مؤثر..

وفي صفحات الكتاب نقرأ تصويرا دقيقا للحراك الثقافي في ليبيا خلال عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وباعتباره مثقفا متميزا فقد ابدع ايما ابداع فيما كتبه عن ذلك الحراك الثقافي في تلك السنوات، وهو حراك شمل الصحافة والمسرح والسينما والمنتديات الثقافية والجامعة وأشياء اخرى....

تحدث خشيم كثيرا عن الثقافة والفكر، وتحدث قليلا عن السياسة، وبدا واضحا انه لا يجيد الصراع السياسي، او انه لا يقبل بما تجره السياسة من خيبات.. ولعل السطور التالية توضح ما وصل اليه من قناعة بشأن السياسة والسياسيين وما فعلوه في العالم العربي (الوطن الكبير الذي حلمنا به موحدا قويا عصفت به الأعاصير وطيرته اشلاء ومزقا. نهش الأخ اخاه وطعن الشقيق شقيقه في الظهر والخاصرة. تناحر زعماؤه وتنافروا، واخذ بعضهم بخناق بعض وتركوا جيوش الأعداء تحتل أرض الوطن وتخلوا عن مقاومة العدو المغتصب، ولم يفطنوا الى خطط الغزو المكتسح حتى صار حقيقة لا خيالا، آه ايها الوطن الكبير الغالي! ذبحك ابناؤك من الوريد الى الوريد ووقفوا يتفرجون على نجيعك يسيل على ترابك المقدس وهم لاهون. قاتلكم الله يا ملوك الطوائف ولعنكم كما لعنكم الناس والتاريخ.. ولم يعد ثمة ما يقال).

وفي صفحات الكتاب التي تجاوزت خمسمئة صفحة الكثير من المعلومات والأسماء والتغيرات الاجتماعية والثقافية التي عرفتها ليبيا وعاشها جيل علي خشيم وهو من مواليد 1936 مصراته...

يقول في احدى الصفحات الأخيرة من كتابه: (حياتي ليست خاصة بي، فهي حياة جيل بكامله كان نبتة في رمال الصحراء القاحلة تتلهف الى قطرة ندى تحييها وترنو الى سحابة عابرة علها تنزل عليها قطرات تدفع بها الى النماء. هذا الجيل نحت طريقه بالأهداب في جبال الصوان السوداء، وجعل من عيونه جسرا تعبر عليه الأجيال القادمة الى مستقبل افضل وأفق ارحب واحلى واجمل. جيلي عاش بالأمل وتغذى على الحلم وسار ببصيص من نور الرجاء.. ولا يزال.

واذا كنت قد تعثرت كثيرا فالعذر ان الطريق لم تكن امامي ممهدة مبسوطة. واذا كنت قد اخطأت كثيرا فما ذاك الا لقلة الخبرة وانعدام الهادي في أغلب الأحيان.

اخيرا هل قال علي خشيم كل ما حدث؟ وهل لخصت انا في هذه العجالة كل ما في الكتاب ؟ لا هذه ولا تلك... انما هي اضافات لعلها تفتح آفاقا للتواصل بين عشاق القراءة والكتابة في عالم صغرته وقربته صناديق الحاسوب.

* باحث وكاتب ليبي يقيم في لندن